المجمع 22 (1447/ 2026). 107-132

صورة العامل والفلاح في شعر راشد حسين:
قراءة في الأبعاد الاجتماعيّة والنّضاليّة

إيهاب حسين[1]

The Image of the Worker and the Peasant in Rashid Hussein's Poetry

Ihab Hussein

Abstract

This article examines representations of the worker and the peasant in Rashid Hussein's poetry collection. Hussein's poetry offers varied depictions of "the worker" as both a victim of injustice and oppression and an agent of rebellion and revolution. Through these depictions, the poet conveys his understanding of workers' suffering and his solidarity with them, presenting himself as a brother in hardship. Alongside this, Hussein's poetry depicts the deprivation experienced by "the peasant" following the dispossession of Palestinian land and rights, with particular focus on the revolutionary consciousness that accompanies this state of injustice. Here, Hussein highlights the simplicity of the Palestinian peasant's mode of life, which runs parallel to endurance and resistance against oppressive forces. Portraying the suffering of Palestinian workers and peasants is inseparable from the concerns of workers and peasants worldwide, indicating proximity to communist philosophy, as well as the concerns of indigenous people living under settler-colonialism.

Keywords: Rashid Hussein, poetry, worker, peasant, suffering, solidarity, revolution

[1] كليّة دافيد يلين، القدس.

الملخّص

يسعى هذا المقال إلى بحث وتقصّي حضور العامل والفلّاح في ديوان الشّاعر راشد حسين، وينبع اهتمامنا بهذا المضمون من غياب الدّراسات الأكاديميّة فيه، ومن رغبتنا في توضيح هذا المضمون بسبب حضوره اللّافت في ديوان الرّجل.

قمنا بتقسيم المقال إلى مبحثين:

الأوّل منهما نناقش فيه حضور العامل، وفي هذا السّياق أبرزنا الخطوط العريضة التّالية:

- تصوير العامل كضحيّة ظلم واستبداد، وما ينتج عن ذلك من رغبة في التّمرّد والثّورة.
- تعبير الشّاعر عن تضامنه مع معاناة العامل معتبرًا نفسه أخًا له يسانده في محنته.
- إظهار معاناة العامل الفلسطينيّ كجزء غير منفصل عن هموم عمّال العالم، وفي هذا السّياق بيّنّا تأثّر الشّاعر بالأجندة العمّاليّة الشّيوعيّة.
- الافتخار بالعامل وصنيعه في بناء الحضارة الإنسانيّة في كلّ زمان ومكان.

أمّا المبحث الثّاني فنناقش فيه حضور الفلّاح، وفي هذا السّياق أبرزنا الخطوط العريضة التّالية:

- توصيف حالة الحرمان الّتي يعيشها الفلّاح في أرضه وبعد أن حُرمَ من ارضه وحقوقه، مع الوقوف على الحالة التّثويريّة الّتي ترافق تلك المظلوميّة.
- إبراز بساطة عيش الفلّاح الفلسطينيّ وما يوازيها من تحدّيه لظالميه.

ينتهي المقال بالإشارة إلى القواسم المشتركة والجامعة بين حضور العامل وحضور الفلّاح في الدّيوان، وذلك رغبة في التّلخيص والإجمال.

الكلمات المفتاحيّة: راشد حسين- العامل- الفلّاح- المعاناة- التّضامن- الثّورة.

تمهيد:

للعامل والفلّاح حضور لافت في شعر راشد حسين، وذلك ممّا دفعنا إلى تقصّيه وبحث تفاصيله وقوفًا على المضامين الّتي سلّط الشّاعر الأضواء عليها في هذا السّياق، ومن المثير أنّ الدّراسات العلميّة حول شعر حسين، بشكل عامّ، قليلة نسبيًّا، ولم يقف أصحابها على مضمون مقالنا ذلك الوقوف العميق والشّامل على وجه الخصوص، فاخترنا أن نتمحور حول هذين المضمونين رغبة منّا في سدّ هذا الفراغ، واخترنا، بناءً على ما تقدّم، أن نجعل المقال في مبحثين: الأوّل يتمحور حول العامل في شعر راشد حسين، أمّا الثّاني فيتمحور حول الفلّاح وحضوره فيه.

المبحث الأول: العامل في شعر راشد حسين

بعد قراءة المضامين الشّعرية ذات الصّلة بالعامل وحضوره في الدّيوان رأينا أنّه بالإمكان جعلها في ثلاثة محاور، وهي:

الأوّل: العامل ضحيّة ظلم واستبداد

في قصيدته المعنونة بعنوان "إلى عامل" يخاطب الشّاعر العامل بصورة مباشرة قائلًا:

هضموا حقوقك واستباحوا دوسها فسحقتَ جمعهم وكنت لها فدًا[2]

العديد من تفاصيل البيت تستوقفنا ولعلّ أبرزها يكمن في توظيف الشّاعر لكلمة جمعهم للدّلالة على أنّ قوى الشّر والظّلم تجتمع معًا لتستهدف العامل وتستبيح حقوقه، وهذا الاجتماع يزيد من مرارة تجربة العامل من جهة ويولّد حالة من الرّغبة في الكفاح والنّضال من جهة أخرى، كما يؤكّد ضرورة وحدة العمّال في ظلّ تعاضد قوى الظّلم، أمّا الأمر الآخر الّذي يثير الاهتمام فيكمن في كون راشد حسين يجعل عجز البيت مساحة لردّ فعل العامل المظلوم على ظالميه، فمعماريّة البيت لا تسمح لمساحة الظّالم بالامتداد دون ردّ يتمثّل في سحق هذه القوى الغاشمة.

[2] راشد حسين. **الاعمال الشّعريّة الكاملة**. (ط 1). (الطّيبة، 1990)، 113.

ولا يغيب عن القارئ أنّ الشّاعر يختار كلماته بدقّة ليصوّر الواقع كما هو، فعبارة استباحوا دوسها تجاور واقع العمّال وما يمرّون به من تجارب قاسية تهينهم وتستبيح كرامتهم، ونفترض أن تكون الألفاظ المهينة جزءًا من رغبة راشد حسين في نقل الواقع من جهة، ومن جهة أخرى نراها تُوظَّف في خدمة مشروع تثويريّ يطمح إلى تحقيقه.

في البيت التّالي من القصيدة نفسها يقول:

وتمرّد الظّلم اللّعين بجيشه فلطمتَ وجه الظّلم حين تمرّدا[3]

يوظّف حسين كلمة بجيشه محقّقًا عدّة غايات، في اعتقادنا، في الوقت ذاته، ومنها:

1. أن يبيّن أنّ قوى الظّلم تنطوي تحت لواء مؤسّسة لها غاياتها ورؤاها ويكون الجيش وسيلتها في التّحقيق والتّنفيذ.
2. أنّ مهمّة الكفاح ليست بسهلة وتستدعي نفوسًا قويّة وتستدعي وجود مؤسّسة عمّاليّة تصدّ اعتداءات وتهديدات المؤسّسة الظّالمة.

لا يغيب عن شاعرنا أنّ تحدّي قوى الظّلم يتطلّب التّضحيات، وليس غريبًا، والحال تلك، أن ينتهي البيت بمعادلة تتفرّع إلى فرعين، فالعامل المهضومة حقوقه يسحق جَمْعَ من تطاولوا على حقوقه لكنّه يدرك، في الوقت نفسه، أنّ الفداء والتّضحيّة هي الفاتورة القاسية الّتي يدفعها العامل في ظلّ استحكام هذه المعادلات، ونعتقد أنّ المعادلة الّتي يعرضها حسين هنا هي مرآة للواقع والتزام بمذهب الواقعيّة في طرحه[4].

[3] الأعمال الكاملة، 113.

[4] يعتبر النّاقد أحمد حسين شعر راشد حسين مرآة للواقع المعيش، فالحادثة الحياتيّة، عنده، مرتبطة تمامًا بالحادثة الشّعريّة، والتّجربة والمعاناة على المستوى الوطنيّ جزء من تفاصيل الواقع وتجلّيها شعرًا أو نثرًا امتداد للواقع. للاستزادة راجع أحمد حسين
http://www.geocities.ws/rashidhosein/derasat.htm#%D8%A3%D8%AD%D9%85%D8%AF%20%D8%AD%D8%B3%D9%8A%D9%86%20%D8%B9%D9%86%20%D8%B1%D8%A7%D8%B4%D8%AF%20%D8%AD%D8%B3%D9%8A%D9%86
(تاريخ الدّخول: 26.6.2025).

للبيت معماريّته الخاصّة، فكلمة تمرّد ترد في بدايته، وهي، أيضًا، الّتي تغلقه، غير أنّ صاحب التّمرّد في مطلع البيت هو الظّلم، بينما في نهاية البيت يتمرّد العامل المظلوم، وكأنّ البيت يختزل هذه المعركة مبيّنًا تفاصيلها وما تتأسّس عليه من صراع محتدم بين ظالم ومظلوم لا يرضيان بالخنوع، بل يسعى كلّ طرف إلى إرساء سلطته على الآخر.

لا يخضع العامل أو ينكسر أمام جيش الظّالمين بل يلطم وجه الظّالم حين يتمادى، فيدأب راشد حسين على المحافظة على معماريّة التّوازن في بنية البيت، فالبيت مسرح الظّالم كما أنّه مسرح المتصدّي له في الوقت ذاته، ولعلّ محافظة الشّاعر على هذا المعماريّة تحمل في طيّاتها صوت التّحدّي ورغبة الشّاعر في عدم إتاحة فرصة الاستبداد لقوى الظّلم مع إدراكه ووعيه التّامّ لكون العامل هو الحلقة الضّعيفة في هذه المعادلات القاسية.

يبرز راشد حسين موتيف معاناة العامل تحت سطوة الحاكم وأرباب العمل في قصيدة أخرى يجعلها بعنوان "قصّة أوّل أيّار"[5]، وفي بعض من أبيات القصيدة ينتقد الحاكم المستبدّ بعمّاله فيقول[6]:

وســرى اللّهيـب إلى النّفوس يثيرهـا ... والـحـاكـم المـغـرور لاهٍ أخـرقُ
في كـلّ يـوم تســتـبـدّ نـيـوبـه ... بـالـعـامـل الـبـاني، فـلا تـترفّـقُ
أُخـذ الأُبـاة الحـاقـدون ليُسـجنوا ... فـجـنـوبهم تـحـت السّــيـاط تـمزّقُ

[5] يرى الباحث رياض كامل انّ الفاتح من أيّار وما يتّصل به من تصوير لمظلوميّة العمّال في العالم عامّة، وفي البلاد خاصّة من أبرز المضامين الّتي انشغل بها سميح القاسم وتوفيق زيّاد، وذلك نتيجة لانتسابهما للحزب الشّيوعيّ وما روّج له من أهمّيّة ومركزيّة قضيّة العمّال واستباحة حقوقهم. راجع رياض كامل، **صورة العامل في شعر سميح القاسم**. الملحق الثّقافيّ، جريدة الاتّحاد، 8.2.2019.

[6] الأعمال الكاملة، 134. كما يرى النّاقد إلياس خوري أنّ شعر الفلسطينيّين في تلك المرحلة كان متشابهًا إلى حدّ لا يوصف، فاعتبر القصيدة تتصادى مع القصيدة، فاللّغة كانت وطن الفلسطينيّين المنفيّين في وطنهم، فكان الشّعر أوّل البدايات، وهذا كلّه، في اعتقاده، ولّد مناخًا مضمونيًّا جمع بين درويش وراشد حسين وسميح القاسم وغيرهم من شعراء تلك المرحلة. للاستزادة راجع خوري، إلياس. "راشد حسين الغائب الحاضر". **مجلّة الدّراسات الفلسطينيّة**. 2013، 54- 66.

إن يُسجنوا فالسّجن ليل صباحهم والشّمس يسبقها الظّلام فتشرقُ

ترتسم صورة العامل سوداويّة ومأساويّة في الأبيات السّابقة، وتبدو يد الحاكم هي اليد العليا في معادلات الصّراع بين العامل وربّ العمل، فالحاكم، وإن وصف باللّاهي الأخرق، يستبدّ كلّ يوم بالعامل الباني، وتأتي الظّرفيّة الزّمانيّة لتدلّ على ثبات حالة الاستبداد، فمشهد الظّلم يتكرّر يوميّا، فما من رادع يردع المستبدّ أو يقف في وجهه، ولا يبدو، استنادًا إلى الأبيات، أنّه ممّن يحكّمون الضّمير في التّعامل مع العامل فالاستبداد يتجدّد مع مطلع كلّ فجر، ولا يبدو أنّ العامل الباني قادر على مواجهة هذا الاستبداد، ولا نستبعد أن تكون الأبيات ممّا يلمّح إلى ضرورة توحيد صفوف العمّال للتّصدّي لمؤامرات الحاكم وظلمه.

لا يقتصر الاستبداد على هضم الحقوق فقط بل يتعدّى ذلك إلى الممارسات القمعيّة الّتي تستهدف الجسد والنّفس معًا، فالسّجن نصيب من يرفع صوت الرّفض في مواجهة ممارسات الحاكم، وهو سجن يرافَق بالتّعذيب والجلد بالسّياط فجُنوب العمّال الثّائرين مصيرها التّمزّق تحت ضربات الجلّاد.

بيد أنّ الشّاعر يرى في هذه التّضحيات جسرًا للوصول إلى الحرّيّة والكرامة ونيل الحقوق، فالسّجن، على قسوته، هو اللّيل المبشّر بصباح خلاصهم وتحرّرهم وعزّتهم وكرامتهم.

ولا يكتفي الشّاعر بالتّعبير عن اعتزازه بصمود العامل وقهره لجيش الظّلم بل يتجاوز ذلك إلى إبرام معاهدة الأخوّة والوفاء بينهما:

إنّي أخٌ لكَ حيث كنتَ وإنّني لعدوّ من ظَلَمَ الملا واستعبدا[7]

نبرة التّوكيد حاضرة في مواضع ثلاثة من البيت، فيوظّف الشّاعر حرف التّوكيد إنّ مرّتين، ويوظّف اللّام المزحلقة الّتي تؤدّي معنى التّوكيد مرّة واحدة، وليس الأمر بغريب فالشّاعر يطمح إلى جعل العامل المضطهد والمطارد والمستهدف في حالة من الإحساس بالأمان، وكأنّه يقول له لستَ وحيدًا في نضالك، فأنا بمثابة الأخ الّذي يساندك في حربك، وإنّني أعادي كلّ من يظلم

[7] الأعمال الكاملة، 116.

البشر ويسعى إلى استعبادهم، ونخال أنّ نبرة التّوكيد وما يرافقها من التزام إنّما يؤكّدان التّهديدات الخطيرة الّتي يواجهها العامل في مشواره النّضالي، وإن لم تكن خطيرة إلى هذا الحدّ لما لمسنا إصرار الشّاعر على المساندة والمؤازرة، فهو يعي هذه الخطورة، وكان لا بدّ له من تدعيم العامل خوفًا عليه من الانكسار والخنوع، كما نرى صوت النّصّ ممّا ينقل إنسانيّة الشّاعر الّذي يتّخذ موقف التّضامن والتّعاطف مع المظلوم جاعلًا الأخوّة تجمع بينهما.

في قصيدة أخرى نشرت في جريدة الاتّحاد بتاريخ 3.6.1958 وبعنوان:

"هاكم ثائرًا آخر"[8]، وهي قصيدة تبنى على مقوّمات الحكاية، وتروي قصّة عبد الله الإنسان الشّريف المكافح من أجل تحصيل رغيف الخبز فيقول الشّاعر واصفًا حاله وما تعرّض له من ظلم الحاكم الّذي يتحكّم بإصدار تصاريح العمل، فهو المانح إن شاء، والمانع إن أراد، وهذا التّحكّم يمكّنه من إخضاع وإذلال من يرفضون حكمه:

كان عبد الله إنسانًا شريفًا
بدموع الكدّ يبتاع رغيفًا
لم يكن يطلب أن يصبح تاجرْ
لم تكن زوجته ذات أساورْ
ذات يوم أصدر الحاكم أمرًا:
"اقطعوا التّصريح أو يسجد عشرًا
لاثمًا أقدامنا صبحًا وعصرًا"

يستغلّ الحاكم العسكريّ[9]، استنادًا إلى النّصّ، ما فوّض إليه من ممارسات من أجل إذلال العامل الفلسطينيّ البسيط الباحث عن لقمة العيش مشترطًا منح تصريح العمل لعبد الله

[8] الأعمال الكاملة، 294- 296.

[9] يشير الباحث راسم خمايسي في مقاله "دور الحكم العسكريّ في تخطيط الحيّز وتقييد عمليّة التّمدّن" إلى أهداف فرض الحكم العسكريّ على الأقلّيّة العربيّة في إسرائيل بقوله: "من أهمّ أهداف الحكم العسكريّ منع تحرّك العمّال العرب بدون رخصة وإذن من أذرع الحكم العسكريّ، منح إذن للحركة والخروج من القرية إلى

بالسّجود والخنوع ولثم الأقدام صباحًا، أي عند الخروج إلى العمل، وعصرًا أي بعد انتهاء العمل وطلب تجديد التّرخيص لليوم الّذي يليه، بيد أنّ عبد الله الشّريف يأبى ويثور على المضطهد:

و أبى صاحبنا أن يسجدا
وتولّى هائجًا مرتعدًا
لِمَ أبقى مهملًا مضطهدًا؟

ولم يقتصر الأمر على رفض السّجود والإذلال وعلى تولّد التّساؤلات في دواخل عبد الله إنّما استحالت مرارة تجربة طلب التّصريح وما يرافقها من تقييد وإذلال إلى ثورة في وجه الحاكم العسكري:

قطعوا التّصريح عنه فتمرّد
سار في أيّار بركانًا تَنَهَّدْ
نافثًا ثورة إنسان مشرّد
قيّدوه... سجنوه
جلدوا بالسّوط ظهره
ظلموه!

تُقابَل ثورة عبد الله بممارسات تصعيديّة تتجاوز حدود منح التّصريح أو منعه لتبلغ ممارسات تتمثّل بالسّجن والتّقييد والجلد بالسّوط، وكلّها، بحسب اعتقاد الشّاعر، شكل من أشكال الظّلم، ولا يخفى عن قارئ القصيدة أنّ الشّاعر راشد حسين، بالإضافة إلى نقل التّفاصيل، يتّخذ موقف التّعاطف من عبد الله، ويسعى من خلال مخاطبة ضمير قارئه الضّمنيّ أن يتّخذ الموقف ذاته، ونميل إلى الافتراض أنّه يهدف إلى خلق حالة تثويريّة، وقد تحدّث أحمد حسين عن نزوع نصّ راشد إلى التّثوير قائلًا:

أماكن عمل خارجها، كلّ ذلك شكّل وسيلة مريحة بيد الحكم العسكريّ لضبط العرب وتحديد حركتهم حتّى لأغراض العمل". انظر خمايسي، راسم. **في ظلّ الحكم العسكريّ وإرثه**، 2014، 89-90.

"لقد كانت البنية النّفسيّة لراشد حسين مكوّنة أساسها من الحقد على هذا الواقع، لذلك آمن بالثّورة بشكلها الشّامل والعنيف، كأداة لتغيير هذا الواقع والتزم هو نفسه سلوكًا ثوريًّا سواء في مواقفه النّضاليّة أو شعره، كثيرًا ما كان يتجاوز حدود الرّغبة في التّغيير إلى الرّغبة في التّدمير، فالعلاج الوحيد لظاهرة الخضوع والاستسلام لدى البعض هو الإلغاء التّامّ"[10]

ونرى أنّ هذا التّوصيف دقيق متجانس مع المعطيات النّصّيّة، ولعلّ نهاية القصيدة تؤكّد ذلك وتدعمه:

صنع الظّلم من العامل ثورة

لم يعد يخشى قيودًا وسجونًا

صار تنّينًا يخيف المجرمينا

تؤدّي الثّورة إلى حالة من تدمير المعادلات السّابقة الّتي استقرّت واستحكمت، فالمضطهد الثّائر ما عاد يخاف القيود والسّجون، وهذا، بحدّ ذاته، إلغاء لما أراد الحاكم العسكريّ أن يثبّته على أرض الواقع، ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ، فالمضطهَد الّذي يفترض أن يخاف ويخشى تحوّل إلى تنّين يخيف ويرعب المجرمين، وبهذا لا يكون النّصّ قد حقّق معادلة التّثوير وحسب، بل نراه قد أصبح في مدارات قلب الطّاولة وقلب الأدوار والمفاهيم، فالّذي يخيف ويرعب يصبح مرعوبًا خائفًا، وليس بغريب أن ينهي الشّاعر قصيدته بقوله:

ثمّ لمّا سجنوه

صار شيئًا آخر

صار إنسانا شريفًا ثائرًا

فالثّورة كقيمة تُضاف إلى قيمة الشّرف، وبهذا المزج تكتمل المعادلة المثاليّة الّتي يطمح راشد حسين إلى تثبيتها في تفاصيل المشهد العمّاليّ الكفاحيّ، فلا قيمة للشّرف إن لم يرافق بروح ثوريّة تواجه الظّالم ومشاريعه.

[10] راجع أحمد حسين عن راشد حسين.

لا يغيب عن القارئ تأثّر الشّاعر بالفكر الأمميّ الشّيوعيّ المتمثّل باستحضار موتيف الفاتح من شهر أيّار، وهو يوم العمّال العالميّ الّذي يشهد مظاهرات جماهيريّة تطالب بإنصاف العمّال في مواقع عملهم، ويرى الباحث رياض كامل أنّ الشّاعرين سميح القاسم وتوفيق زيّاد قد تأثّرا بهذه العقيدة الشّيوعيّة وبات تأثيرها جليًّا في العديد من قصائدهما، لسنا نشكّ بصحّة طرح كامل بل نجزم بأنّ راشد حسين يتأثّر بها أشدّ التّأثّر أيضًا، غير أنّ قارئ سطور القصيدة أعلاه يستشعر محلّيّة المشهد، ويستشعر أنّ الشّاعر، وإن كان متأثّرًا بهذه الأجندة، يلتصق بهَمّ، أو قل هموم عبد الله ابن البلاد ناقلًا ما يعانيه بدقّة وتفصيل يجسّدان واقع تلك المرحلة، ومن تفاصيل ذلك الواقع الحاكم العسكريّ وما يصدر من تصاريح عمل مقيّدة للعمّال أبناء هذه الدّيار، خلاصة قولنا أنّ في النّصّ مزجًا بين تفاصيل الأجندة النّضاليّة الشّيوعيّة، وبين تفاصيل الواقع المعيش الّذي عايشه راشد حسين على مستوى الممارسة أو المشاهدة أو الاثنتين معًا.

الثّاني: أفضال العامل على البشريّة.

يفتخر راشد حسين بالعامل وصنيعه مشيرًا إلى أفضاله على الإنسان والبشريّة مثمّنًا ذلك الدّور محتفيًا به وبالمواصفات الّتي يتحلّى بها العامل على الرّغم من التّحدّيات الصّعبة الّتي تناولناها في الباب السّابق من هذا المقال، يقول في قصيدته "إلى عامل":

في صـــوتـك الـدّاوي إبـاءٌ حيـنمـا دوّى وصــفّق في الفضــاء وأرعدا[11]

يجعل الشّاعر الإباء مقوّمًا أساسيًّا من مقوّمات العامل، ولعلّ الشّاعر أراد أن يبيّن الإباء كركيزة أساسيّة يتأسّس عليها المشروع النّضاليّ، ولسنا نخال أنّ ذلك المشروع سينجح في غياب هذه الأرضيّة، ولا يكتفي الشّاعر في إبراز الإباء كقيمة منفصلة عن سائر ملامح العامل، فالصّوت الدّاوي هو البوق الّذي تُنفخ فيه معادلة الإباء، وينجم عن ذلك صوت يدوّي في الفضاء ويرعد الأنحاء.

[11] الأعمال الكاملة، 113.

نلحظ في هذا البيت ديناميّة قائمة على الدّمج بين الفخر والاعتزاز بالعامل من جهة، وبين دويّ صوته الّذي يرعد ويخيف من جهة أخرى، وهذه الإخافة مطلوبة في ظلّ التّحدّيات المحيطة بالعامل، وكأنّ الشّاعر على دراية بأنّ الإباء وحده لا يكفي ولا بدّ من أن يدعّم بقوّة الحضور.

كما لا تغيب عنّا دراية راشد حسين لموقعه بين جمهور قرّائه، فخطابه الشّعريّ وما يتأسّس عليه من منبريّة يؤكّد تلك الدّراية، فهو يدرك ما الّذي تنتظره القاعدة الجماهيريّة الواسعة من مضامين نضاليّة تولي العامل موقعه الّذي يستحقّه، ولا نشكّ بأنّ راشد حسين كان مطّلعًا على المناخ العامّ المسيطر على المشهد المحلّيّ، فجاءت هذه القصيدة وقصائد أخرى منسجمة مع ذلك المناخ، وفي هذا السّياق نورد ما قاله الكاتب الفلسطينيّ توفيق فيّاض واصفًا مكانة راشد حسين في أوساط مجتمعه من باب تدعيم وتعزيز طرحنا: "كان راشد حسين قد أصبح جزءًا من هموم النّاس، وجزءًا من فلسطين الصّغيرة والكبيرة، يتحدّث عنه الفلّاح والعامل ويعيش الطّلبة على قصيدته القادمة، وعلى مقاله الأسبوعيّ الصّغير، وفي أواخر الخمسينات صار سيّد المنابر في الأرض المحتلّة"[12]

يتّخذ تعظيم الشّاعر للعامل منحى تصاعديًّا في القصيدة ذاتها، فإباء العامل يجعل المجد ساعيًا إلى ضمّ كفّه إلى كفّ ذلك الصّانع صاحب الفضل والعزّة:

وأتى إليك المجد يبسط يده فمددتَ لما إن جاء له يدا[13]

يدأب الشّاعر على إبراز العامل كقِبلَة يسعى إليها المجد، وكأنّ الشّاعر يقلب المعادلة، ففي العادة يسعى الأفراد إلى المجد ويرنون إليه شغوفين ببلوغه، بيد أنّ شاعرنا يجعل المجد ساعيًا إلى العامل طالبًا مصافحة اليد الطّاهرة الّتي صنعت وأبدعت، وتمتدّ حالة الاعتزاز إلى الأبيات التّالية من القصيدة ذاتها ويتمحور الصّوت المركزيّ فيها حول فضل العامل في تاريخ البشريّة مرورًا بالمحطّات التّاريخيّة الّتي يلعب في تأسيسها دور الأساس قديمًا وحديثًا، أمّا في العصر القديم فيشير راشد حسين إلى دوره في تشييد أهرام مصر وبناء صروح روما التّاريخيّة:

[12] انظر حسني محمود. **راشد حسين من الرّومانسيّة إلى الواقعيّة**، الزّرقاء، 1985، 20.

[13] الأعمال الكاملة، 114.

قم ســـائل الأهرام عمّن شـــادها؟ واهتف بروما: من فَخَارَكِ أوجدا؟[14]

يختار الشّاعر الأهرام وروما كرمزين لقمّتين حضاريّتين شهدتهما الإنسانيّة ليؤكّد حضور العامل المركزيّ في خلق هذا التّألّق الإنسانيّ، فلولا هذه اليد لما نالت الأهرام شهرتها ولما احتلّت روما حيّزها الخاصّ في صفحات التّاريخ.

أمّا في العصر الحديث فيختار راشد حسين أن يسلّط الأضواء على ناطحات السّحاب:

واهتف بناطحة السّـحاب وقل لها لا تـكـبري مـا أنـت إلّا لي صـــدى

فناطحة السّحاب، وإن عَلَت وأبهرت وتكبّرت، فهي مرآة وصدى لصنيع العامل وجهوده الجبّارة الّتي شيّدتها، ولولاها لما احتلّت الحيّز الخاصّ من المجد والعظمة. يلحظ القارئ توظيف أسلوب الحصر والقصر في عجز البيت وهو من أساليب التّوكيد الّتي تسهم في إبراز الفكرة وتوكيدها، ونرى الشّاعر مهتمًّا بإبراز استحالة تشييد ناطحات السّحاب بدون يد العامل، فهو، إذن، صاحب الفضل ويحقّ له أن يبيّن دوره في إنشائها.

كما يلتفت إلى قطبي العالم آنذاك روســيا وأمريكا مؤكّدا أنّ ما يتمتّع به البلدان من ســيادة وشموخ لا يتمّ إلا بفضل العامل:

[14] في مضمار الافتخار بالعامل وصنائعه وفضله على الإنسان والإنسانيّة نشير إلى ما جاء في قصيدة أمير الشّعراء أحمد شوقي "أيّها العمال أفنوا العمر":

واعـمـروا الأرض فـلـولا ســعيكم أمســت يبابا
أيـن أنـتـم مـن جـدود خـلّـدوا هـذا الـتّـرابـا
قـلّـدوه الأثـر المـعـجِـزَ والــفــنّ الــعــجــابــا
وكســـوه ابـد الـدّهـر مـن الـفـخـر ثـيـابـا

راجع موقع الدّيوان https://www.aldiwan.net/poem63778.html، (تاريخ الدّخول: 30.6.2025).

فلولا جهود العامل لباتت الأرض مساحة من الخراب، وما العامل اليوم إلّا امتداد لمسيرة مشرّفة بدأها أجداده الّذين كتبوا لتراب الأرض الخلود، وسطروا معادلات الإعجاز في صنائعهم إرثا فنيّا عجيبا فريدا، وليس بغريب أن تكسو صنائع العامل الدّهر ثياب الفخر والزّهو والاعتزاز.

واهتف بسـيّـد روسـيـا وأمريكـا: لا تشـمَخَنْ فأنا جعلتك سـيّدًا![15]

للشّاعر مذهبه الخاصّ في بناء معماريّة قصيدته، فمن العصور القديمة يختار الأهرام وروما، ومن العصر الحديث يختار روسيا وأمريكا ليبيّن شموليّة دور وصنيع العامل في صعيدين:

1- الصّعيد المكانيّ.

2- الصّعيد الزّمانيّ.

وبهذا يرفع من مكانة العامل وفضله في المسيرة الإنسانيّة قديمًا وحديثًا وشرقًا وغربًا، فسموّ الحضارات مرهون بيده وما تقدّمه من الصّنائع الّتي تكتب حكايات المجد في أقطار الأرض.

يبلغ اعتزاز راشد حسين بالعامل ذروته حين يجعل ابتسام الهلال وإشراق الشّمس وتغريد البلابل مشروطة بوجود العامل، يقول:

لولاكَ ما ابتسـم الهلال وأشـرقت شـمسٌ ولا سـرب البلابـل غرّدا[16]

فالطّبيعة، ببعض من مكوّناتها الأساسيّة، إنّما يُشترط حضورها بحضور العامل، وبهذا يمجّد الشّاعر مكانته ودوره، فابتسامة الهلال لن تكون إذا غُيّبت يد العامل، والشّمس لن تشرق أيضًا، والبلابل لن تغرّد تغريدة التّسبيح والشّكر والثّناء إذا تلاشى دور العامل.

يمتدّ هذا التّمجيد إلى البيت التّالي من القصيدة نفسها:

غنّـت ملائكـة السّـمـاء ومجّـدت ذكراك والشّـيطان جُنَّ وعربـدا[17]

المثير في فضاء البيت أنّ الشّاعر يتجاوز حدود الأرضيّ ليصل إلى السّماويّ غير المرئيّ، فالملائكة تغنّي للعامل وتمجّد ذكراه شـاكرة مقدّرة ما قدّم ويقدّم للإنسـانيّة، وتكتمل الثّنائيّة بجنون وعربدة الشّيطان إذ رأى الملائكة تمجّد العامل المكافح، ونميل إلى الاعتقاد أنّ الشّيطان في هذا البيت تمثيل للقوى الّتي تهدف إلى استصغار شأن العامل وطمس حقوقه وتهميش دوره.

[15] الأعمال الكاملة، 114.

[16] نفس المصدر، 114.

[17] نفس المصدر، 114.

ويخلص الشّـاعر إلى أنّ الخلود يرفّ على جبين العامل ليمسـح على جبينه العرق الّذي تناثر على محيّاه كالنّدى:

رفّ الخلود على جبينـك مـاسـحًـا عرقًـا تنـاثر فوق وجهـك كـالنّـدى[18]

فإنّ كان الخلود يمسح عرق الصّـانع، فهذا الصّـانع يصـبح جزءًا من خلود لا ينتهي ولا يزول، وكأنّ صـوت البيت يوحي بأنّ ما صـنعه العامل يكتب له الخلود، وبهذا يكون صـنيعه بصـمة لا تُمحى.

- **الثّالث: الطّابع الأمميّ**

يتجاوز نصّ راشد حسين حدوده الجغرافيّة الإقليميّة ليوحّد بين عمّال العالم[19] معتبرًا يد العامل منتشرة في أرجاء الأرض، وهي حاضرة في كلّ مكان لا يُنكَر وجودها، يقول:

أينمـا تنظر تجـدهـا تـزرع الأرض أغـانـي

ومروجًا من أماني[20]

فيد العامل موجودة في كلّ مكان، وهي الّتي تزرع الأرض بالأغاني والأماني والآمال، فلولا هذه اليد لفقدت الأرض الموسيقى والأمل والأمنيات، نلمح في هذا المقطع رغبة الشّاعر في إبراز الدّور الّذي

[18] نفس المصدر، 115.

[19] يتطرّق الباحث رياض كامل إلى الفكر الأمميّ وتأثيره على شعر سميح القاسم وتوفيق زيّاد معتبرًا انتماء الشّاعرين إلى الحزب الشّيوعيّ وانكشافهما على تفاصيل الأجندة العمّاليّة ممّا غذّى قصائدهما، فالقارئ يلمس في قصائدهما طابعًا أمميًّا وتأثّرًا جليًّا بالشّيوعيّة العالميّة لا سيّما تنظير ماركس ولينين وفيدل كاسترو وتشي جيفارا، ويسوق قصيدة سميح القاسم "طلب انتساب للحزب" مثالًا على الفكر الأمميّ وانعكاسه في شعره حيث بقدّم الشّاعر لقصيدته بإهداء جاء فيه: "إلى ماير فلنر.. وشيوعيّين لا أعرف أسماءهم من أسيوط واللّاذقيّة وفولغوغراد ومارسيليا وإزمير، ومن جميع المدن والقرى وأكواخ الصّفيح والعرائش المتشبّثة بكوكبنا- بكرتنا الأرضيّة". أمّا تأثّر زيّاد فقد انعكس في قصيدته "إلى عمّال موسكو" الّتي كتبت عام 1961 الّتي يخاطب من خلالها عمّال موسكو جاعلًا شرف الانتماء إلى طبقة العمّال الأخوّة الجامعة بينه وبينهم. للاستزادة انظر كامل، 2019.

[20] الأعمال الكاملة، 299.

يؤدّيه العامل في خلق بيئة إيجابيّة، فليس السّيّد هو الّذي يصنع الخير والجميل، فالفضل، بحسب اعتقاد الشّاعر، مردود للعامل لا لربّ العمل، للعامل لا للمؤسّسات الّتي تشغّله.

بعد هذا المطلع بافتتاحيّته الورديّة يتساءل راشد حسين عن اليد الّتي زرعت الأماني والأغاني:

إنّـهـا دفـقـةُ نـورٍ خـالـدٍ من تراها؟ يد من؟ ماذا تريد؟[21]

ونرى أنّ تزاحم مواضع الاستفهام في العجز ينقل رغبة الشّاعر في إبراز دور يد العامل وتعظيمها وتشويق القارئ لمعرفة المزيد عنها وعن صنيعها، ولا تتأخّر الإجابة فيقول:

إنّـني ألمـحـهـا في قـبـرص زرعـت في أرضـهـا فجرًا منيرًا[22]

يمجّد الشّاعر تلك اليد الّتي ناضلت وكافحت من أجل خلق فجر جديد يضمن للعامل حقّه مهما حاولت قوى الظّلم حرمانه من حقوقه الأساسيّة، فلولا النّضال العمّاليّ لبقي العامل في ظلمات الظّالم، ولما استطاعت قبرص الانطلاق نحو غدها المنير، وكأنّ يد العامل هي الّتي نقلت قبرص من الظّلمات إلى مسارات النّور والتّجدّد، في البيت اللّاحق من القصيدة يمجّد الشّاعر يد عمّال غواتيمالا الّتي ناهضت الأمريكيّين:

ولـقـد شـاهـدتهـا في غـواتـيـمـالا صـفـعت نيكسـون فارتدّ حسـيرًا[23]

يد العامل البسيط تستطيع أن تواجه القوى العظمى وتستطيع أن تردّها مهزومة كليلة مجهدة بعد أن فشلت في تحقيق غاياتها ومطامعها، ولسنا نشكّ بأنّ راشد حسين يتفاعل مع صنيع اليد القبرصيّة والغواتيماليّة معتبرًا نفسه امتدادًا لها، فمهما تباعدت المسافات، ومهما تباينت الحضارات والظّروف فالعامل في بلاد الشّاعر امتداد للعامل في قبرص أو في أمريكا الوسطى، ويعبرّ الشّاعر عن هذه الأجندة في قوله:

[21] نفس المصدر، 299.

[22] نفس المصدر.

[23] نفس المصدر.

إنّ تلك اليد خضراء كحبّي
إنّها طاهرة الكفّ كشعبي
إنّها سمراء كالزّيتون في قريتنا
وعلى معصمها العاري سوار من البنفسج
إنّ تلك اليد ثورهْ
ثورةٌ تشرق في أرض العبيد[24]

يدأب راشد حسين على مدّ الخيوط بين يدي عامل قبرص وغواتيمالا وبين يدي فلّاح قريته، فالطّهر يجمع بينهم مهما اختلفت قوميّاتهم وانتماءاتهم العرقيّة، فطُهْر كفّ الفلّاح الفلسطينيّ تمثيل لطُهْر شعبه، ويده الخضراء الخيّرة المسالمة تتكاتب مع يد العامل في أقطار العالم البعيدة، وذلك المزج بين المحلّيّ والعالميّ يؤكّد طرحنا السّابق وجزمنا بأنّ راشد حسين يغترف من الموروث العالميّ من جهة، ويحافظ على خصوصيّة المشهد المحلّيّ الّذي يعايشه بكامل تفاصيله من جهة أخرى.

[24] الأعمال الكاملة، 300.

المبحث الثاني: الفلّاح:[25]

المحور الأوّل: حرمانٌ، ظلمٌ واضطهاد

الحرمان وما يرافقه من ظلم الفلّاح من أبرز التّفاصيل الّتي لمسناها خلال قراءتنا للأبيات ذات الصّلة بالفلّاح وانعكاسها في ديوان راشد حسين، ففي قصيدته ثورة فلّاح[26] يقول:

قـدّمـتُ غـلّاتي لـيـأكـل ســـيّـدي ورجـعـتُ بـالحـرمـان والأوجـاع[27]

يستشعر القارئ معادلة الإقطاع ومعادلاته القاسية في فضاء البيت، فالسيّد الإقطاعيّ يأكل الغلّات الّتي تعب الفلّاح في زراعتها ورعايتها وقطفها، أمّا الفلّاح صاحب الفضل فيها فيعود إلى بيته محرومًا متعبًا، ولسنا نرى الشّاعر حياديًّا في بيته هذا فموقفه المتعاطف والمتضامن مع الفلّاح جليّ لا سبيل إلى إخفائه، ولعلّ ثنائيّة الصّراع بين الفلّاح وسيّده تذكّرنا بالثّنائيّة ذاتها بين العامل وربّ العمل الّتي ناقشناها في المبحث السّابق، وبهذا تصبح هذه المعادلة موتيفًا متكرّرًا يفرض نفسه على أجندة راشد حسين الّذي يرفع هذه الثّنائيّة لقارئه بصورة واضحة، بيد أنّ الشّاعر، وعلى لسان الفلّاح المتعب المقهور والمحروم، يعلن ثورته، كما أعلنها العامل المظلوم أيضًا، مصرّحًا بعهد يلتزم به:

---

[25] يتطرّق الباحث محمّد قعدان إلى أوضاع الفلّاحين الفلسطينيّين تحت الحكم العسكريّ في مقاله "الكفاح الفلسطينيّ تحت الحكم العسكريّ بوصفه تاريخًا عالميًّا: الشّيوعيّون وحركة الأرض" مستشهدًا بما جاء في مذكّرة رفعها مثقّفون فلسطينيّون آنذاك إلى الأمين العامّ للأمم المتّحدة يصفون فيها الممارسات بحقّ الفلسطينيّين، وجاء فيها: "دأبت الحكومة منذ قيام الدّولة على اتّخاذ شتّى الإجراءات الرّامية إلى مصادرة ما يمتلكه العرب من الأراضي في البلاد، فسنّت من أجل ذلك مختلف التّشريعات والأنظمة، ومارست على نطاق واسع عمليّات التّرحيل ونسف القرى وتخريب مزروعاتها للحيلولة دون رجوع أهاليها". للتّوسّع والاستزادة انظر محمد قعدان. "الكفاح الفلسطينيّ تحت الحكم العسكريّ بوصفه تاريخًا عالميًّا"، **مجلّة رمّان الثّقافيّة.** الرّابط https://rommanmag.com/archives/35816. (تاريخ الدّخول: 22\10\2025).

[26] الأعمال الكاملة، 119.

[27] الأعمال الكاملة، 120

أنـا ثـائـر ولســـوف أبـقـى ثـائـرًا حتّى تزول شــراســـة الإقطـاع[28]

لا تتأخّر الثّورة في الوصول في ظلّ استحكام الإقطاعيّ صاحب النّفوذ بالفلّاح المستضعف، فيعلن الأخير ثورته من خلال جملة إخباريّة قصيرة، ونرى أسلوب الإخبار هنا وسيلة لإزالة الشّكوك حول تردّدٍ قد يسيطر على نفسيّة الفلّاح الثّائر وانطلاقه في مشروعه المقاوم، ونرى قصر العبارة دالًّا على رغبة في إظهار الحزم والجزم في مسألة بداية الثّورة، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يتجاوزه وصولًا إلى تعهّد بمواصلة الثّورة وما يرافقها من حراك ثوريّ حتّى زوال شراسة الإقطاع وظلم أصحابه من ذوي النّفوذ والسّلطة والإمكانيّات.

يوظّف الشّاعر لام التّوكيد في قوله لسوف مؤكّدًا التزامه الأخلاقيّ بمواصلة مشوار الثّورة، وفي البيت اللّاحق من القصيدة نفسها تتكرّر الصّيغة ذاتها في قوله:

ولســـوف أخبر كـلّ جيـل قصّــتي حتّى يصــير المجـد من أتبـاعي[29]

يؤكّد الفلّاح أنّه سيروي قصّته جيلًا بعد جيل، فالحقيقة يجب أن تروى خوفًا عليها من أن تطوى في صفحات النّسيان، ونرى أنّ الشّاعر راشد حسين يؤدّي دور ناقل الرّواية لجميع الأجيال، فالشّعر خير وسائل الحفظ، وقصة الثّائر المظلوم لن تضيع ما دام الشّاعر والمظلوم منسجمَيْن في طرحهما، وسيدوم إطلاع القارئ/ القرّاء على تفاصيل هذه الحكاية إلى أن يتحقّق المجد لصاحب النّضال المرير والقاسي.

يلمس المتلقّي حالة من الإصرار والالتزام والالتصاق في الغايات الّتي يسعى الشّاعر إلى تثبيتها، ولا يغيب عنّا أنّ الشّاعر يدرك أنّ غاياته صعبة وتتطلّب مواظبة بعيدًا عن اليأس والانكسار، فراشد حسين مطّلع على المشهد بكامل تفاصيله وواقعيّته المريرة[30]، لكنّ ذلك لا يفقده الإيمان

[28] نفس المصدر.

[29] نفس المصدر.

[30] يتطرّق الباحث شوملي قسطندي إلى مذهب راشد حسين المستند إلى الواقعيّة مؤكّدا استقاء الشّاعر تجاربه الواقعيّة من تجاربه الحياتيّة الذّاتيّة والعامّة لتصبح مادّة شعريّة في ديوانه، مشيرًا إلى أهمّ ما يميّز هذه المادّة الشّعريّة من مباشرة وبساطة، ويرى أنّ التّفاصيل المنقولة شعرًا في الدّيوان إنّما تبيّن موقع الشّاعر من السّلّم

بثورته على الظّالم، فتراه يقسم ملتزمًا بخوض الغمار والصّعاب وصولًا إلى الفجر المنتظر فيقول:

قسمًا بعطر اللّوز في بستاننا، بدم الشّقيقْ
سأظلّ أوقظ مجدي الغافي إلى أن يستفيقْ

للوز بستان الشّاعر قدسيّته الخاصّة، فهو يقسم بعطره ملتزمًا بإيقاظ مجد الفلّاح الّذي غُيِّب في طيّات الزّمان وصفحاته، فأصبح لزامًا على الشّاعر أن يؤدّي دوره في إيقاظه وإحيائه من جديد، ولن يكتفي راشد حسين بإحياء المجد الغافي بل يتجاوز ذلك إلى رفع أعلى الأصوات فيقول:

وأظلّ أنشد فوق كلّ ثنّية[31] صوتًا يشقّ مغالق الأسماع

سيرفع الشّاعر صوت إنشاده فوق كلّ الطّرق في الجبال، رغبة منه في شقّ الأسماع الّتي تعمَّدَ أصحابها إغلاقها من باب تجاهل صوت الحقّ وطمسه، فيختار أن يكون البوق الّذي يرفع صوت المظلومين في وجه المتغطرسين الّذين يهدفون إلى تجاهل الفلّاح وما يعانيه من ظلم، يستدلّ من البيت أنّ الشّاعر يواصل التزامه الّذي لمسناه في الموضع السّابق، وهذا الالتزام يتكاتب، أيضًا، مع التزامه بمناصرة العامل كما رأينا في المبحث السّابق، ونستطيع، بناءً عليه، أن نؤكّد أنّ قيمة الالتزام من أبرز ما يميّز شعر راشد حسين، فشعره ملتزم بقضايا شعبه وآلام أفراده عمّالًا وفلّاحين، أضف إلى ما تقدّم أنّ نبرة البيت تتأسّس على حالة من تحدّي أولئك الّذين يرغبون في إغلاق الأسماع، فصوته سيرتفع فوق كلّ طريق دون كلل أو تراجع حتّى يحقّق غايته المتمثّلة برغبته في إسماع ذلك الصّوت، ولا يغيب عنّا أن الشّاعر يوظّف كلمة يشقّ ليبيّن أنّ العمليّة تُصاحَب بالقوّة والإصرار والتّحدّي، فالصّوت سيُسمَع مهما حاولوا تجاهله.

الطّبقيّ، فهو من بقايا شعب أصبح كلّه مستغلًّا، والقسم الأكبر من هذا الشّعب من سكّان القرى. انظر قسطندي شوملي، **جدليّة الحياة والموت: دراسة بنيويّة في شعر راشد حسين**. الطّيبة، 1996، 6-14.

[31] الثّنية: الطّريق في الجبل.

المحور الثاني: بساطة العيش وتحدّي الظّالم:

في قصيدة "رسالة إلى آيك"[32] المنشورة في جريدة الاتّحاد بتاريخ 15.8.1958 يخاطب الشّاعر الرّئيس الأمريكيّ بلهجة حادّة مؤكّدًا له أنّ الفلّاح، على بساطة عيشه، سيقاوم مشاريع أمريكا الغاشمة المتمثّلة بظلم الشّعوب وحرمانها من حقوقها، ويختار راشد حسين أن يفتتح القصيدة بتوصيف حال فلاح منطقة المثلّث:[33]

من سفح مثلّثنا الأخضر من بلد عربيّ أسمرْ
حيثُ الفلّاح بلا أملٍ إلّا ما كدّس في البيدرْ

يُستدلّ من البيتين أنّ الفلّاح يعيش بلا أمل في أرضه ووطنه، ونميل إلى الافتراض بأنّ فلاح المثلّث يمثّل فلّاح فلسطين بصورة عامّة، ولعلّ عبارة بلد عربيّ أسمر، في البيت الأوّل، خير الأدلّة على ذلك، الفلّاح فاقد للأمل بالمستقبل، فكيف له أن يعيش على أمل وكلّ ما في بيته يتمثّل بما كدّس من البيدر؟! وكأنّ الشّاعر يهدف من خلال هذا التّوصيف إلى إظهار واقع الفلّاح الفلسطينيّ صاحب الإمكانيّات المحدودة الّتي لا تمكّنه من التّخطيط المستقبليّ، لكن، وعلى الرّغم من ضيق الأفق المستقبليّ فالشّاعر يهتمّ بإظهار ما يتمتّع به هذا الفلّاح ورهطه من أهل قريته من مواصفات أخلاقيّة فيقول:[34]

من بلدٍ يسكن في صدره ما يسكن باقي المسكونة
ناسٌ ما زال إلههم حيًّا في القلب يحبّونه

فلّاح راشد حسين كباقي سكّان المعمورة هو من الّذين تُعمَّر قلوبهم بالإيمان بإله يحبّونه، ويحيا في قلوبهم، ولا نستبعد أن يكون هذا الإله تمثيلًا للضّمير الإنسانيّ الحيّ الّذي يتمتّع به فلّاح المثلّث، وذلك الضّمير حيّ على الرّغم من صعوبة العيش وفقدان الأمل بالمستقبل كم بيّنّا في مطلع القصيدة.

[32] يشير الشّاعر في أسفل الصّفحة إلى أنّ "آيك" هو لقب الرّئيس الأمريكيّ أيزنهاور.

[33] الأعمال الكاملة، 313.

[34] نفس المصدر.

في أبيات لاحقة من القصيدة نفسها يُدخلنا الشّاعر إلى ثنائيّة تنقل صوت قصيدته، وطرفا هذه الثّنائيّة هما:

1- الفلّاح الفلسطينيّ ببساطة عيشه وقلّة إمكانيّاته.

2- الأمريكيّ المتغطرس وعدوانيّته الّتي يتحدّاها الفلّاح.

يقول راشد حسين[35]:

فـــي ســـفح مثلّثنـــا الأخضـــرْ تتضـــاءل أمريكـــا الحـــرّهْ
فـــلّاح بـــلادي إنســـانٌ لا يعـــرف أســـرار الـــذَّرَّهْ
فـــلاح بـــلادي ذرّتـــهُ أن يحطّـــم عيشـــتهُ المـــرَّهْ
أن يبكـــيَ ســـاعدهُ عرَقًـــا ليـــروّيَ فـــي الحقـــل زهـــرَهْ

نرى أنّ الأبيات تمثّل أجندة الشّاعر خير تمثيل، ففي فضاء النّصّ صراع جليّ بين أمريكا الّتي تتمتّع، بحسب الشّاعر، بقوّة فتّاكة أساسها العلم بأمور الذّرّة النّوويّة الّتي تمكّن الأمريكيّ من فرض سيادته في بقاع الأرض، وفي المقابل هناك الفلّاح الّذي يجهل أسرار الذّرّة، فذرّته الوحيدة أن يواجه مرارة العيش طامحًا إلى تحطيم معادلات العيش المرير الّتي يعيشها الفلّاح الفلسطينيّ.

من خلال إطلاع القارئ على تفاصيل الثّنائيّة يكشف الشّاعر عيوب الأمريكيّ من جهة، ويبرز طهارة وشرف وتضحية فلّاح المثلّث، فالأمريكيّ أسّس لمكانته من خلال سلاحه الذّرّيّ الّذي يحصد الأرواح ويهدّد الأمن والسّلام، وفي المقابل ينشغل فلّاح شاعرنا بمشاغله اليوميّة المتمثّلة بمحاولة قهر تحدّيات العيش اليوميّة القاسية. بيد أنّ الشّاعر لا يكتفي بذلك فنراه ينقلنا إلى ثنائيّة داخل الثّنائيّة، ولعلّ هذه الثّنائيّة هي الصّوت الّذي يطمح إلى رفعه من خلال هذه الأبيات، فبحسب النّصّ، الفلّاح سينزف عرقًا وتضحية ليروّي زهرة الحقل، وفي تضحيته هذه يكون قد أتعب نفسه ليوفّر للزّهرة أسباب وظروف العيش والاستمرار والتّجدّد، وبهذا يؤدّي واجبه الأخلاقيّ والإنسانيّ، بينما يختار الأمريكيّ أسرار الذّرّة نهجًا وسبيلًا من أجل فرض

[35] الأعمال الكاملة، 315.

سيطرته، والذّرّة أداة قتل ومحوٍ وإبادة، وكأنّ الشّاعر من خلال الجمع بين مواصفات الفلّاح والأمريكيّ يطالب المتلقّي بإجراء مقارنة بينهما، ومن خلال هذه المقارنة يكون صوت القصيدة قد وصل إلى القارئ.

المثير في الأبيات السّابقة، وفي البيت الأوّل منها تحديدًا أنّ الشّاعر يجعل أمريكا النّوويّة ضئيلة صغيرة إذا ما قيست بالمثلّث الأخضر، ولا يكتفي الشّاعر بتقليل شأنها بل يتعدّى ذلك إلى تبنّي لغة ساخرة في نهاية البيت في قوله "أمريكا الحرّة" فالعبارة، في اعتقادنا، مفعمة بالسّخريّة، فكيف تكون أمريكا حرّة وتفتخر بالقيم الدّيمقراطيّة وتروّج لها وفي الوقت نفسه تهدّد الشّعوب بالسّلاح الذّرّيّ!!

في منتصف القصيدة ينقلنا راشد حسين إلى طور آخر من عمليّة المقارنة بين فلّاح بلاده وبين الأمريكيّ، ونلاحظ هذا الانتقال على مستوى معماريّة القصيدة أيضًا، فينقلنا من بنية الصّدر والعجز إلى سطور مستقلّة متساوية الطّول، ويختار أن يغيّر القافية، لكنّه يبقيها مسكّنة كما في المواضع السّابقة.

أمّا على مستوى المضمون فيُدخلنا الشّاعر إلى بعض من تفاصيل حياة فلّاح بلاده البسيطة ويقيسها ببعض من ملامح عيش الأمريكيّ:[36]

فلّاح بلادي سكن كوخًا من الأخشابْ
أو بيتًا ينبتُ من صخر وترابْ
لم يسكن مثلكم في بيت سحابْ
لم يدخل جامعة للمنطق مشهورهْ
لم يدرس أو يقرأ تاريخ المعمورهْ

من خلال المقارنة تتّضح لنا بعض الملامح الجديدة من هويّة عيش الفلّاح، واخترنا أن نجعلها في البنود التّالية:

[36] نفس المصدر.

- يسكن في بيت متواضع يتمثّل بكوخ من الأخشاب.
- يتوحّد مع طبيعته ومكوّناتها من صخر وتراب ليبني بيته، ولا يخفى عن القارئ أنّ الشّاعر يتعمّد توحيد الفلّاح مع أرضه صخرًا وترابًا، من أجل إبراز ما يفتقر إليه الأمريكيّ، فهو يسكن في بيت يناطح السّحاب فيبتعد أو قل ينفصل عن تراب وصخر أرضه.
- لم ينخرط في مسيرة تعليميّة أكاديميّة في جامعة تدرّس المنطق، ولسنا نستبعد أن يكون كلام الشّاعر تعبيرًا عن حرمان شريحة واسعة من أفراد مجتمعه من التّعليم العالي في تلك المرحلة العصيبة.
- لم يقرأ تاريخ الإنسانيّة والمعمورة كما فعل الأمريكيّ.

لكن، وعلى الرّغم من ذلك كلّه لم يفقد الفلّاح ضميره الحيّ بل وقف صامدًا يواجه الظّلم والظّالمين:[37]

وبرغم جهالته يا "آيك"
لم يجهل أنّ هبوط رجالك في بيروتْ
قد يُلقي قمر نيويورك بجوف الحوتْ
ويحيل "البيت الأبيض" أتربة سوداء

ثمّ يوجّه أصابع الاتّهام إلى الأمريكيّ معتبرًا إيّاه

يدفن آلاف الأطفال وهم أحياءْ
يحفر للدّنيا بالذَّرَةِ قبر فناءْ[38]

وبعد الاتّهام يُرفَعُ صوت التّحدّي، ويختار الشّاعر أن يكون الفلّاح الّذي لم يدخل جامعة، ولم يقرأ تاريخ المعمورة جزءًا لا يتجزّأ من نبرة التّحدّي، فيقول:[39]

[37] نفس المصدر.

[38] نفس المصدر.

[39] الأعمال الكاملة، 317.

يا مستر "آيك" الأمريكيّ يا قائد الذّرّة
إنّا أقسمنا بالثّورة وبأقدس شهداء الثّورة
أقسمنا ألّا نُطعِم شرق الحرّيّة
لمدافع سفكٍ وقنابل ذرّيّة
أقسمنا أن يحيى الأطفال لأهليهم
حتّى أطفالك لن نرضى أن تفنيهم
أقسمنا أن لا يُحرَم طفل ثوبَ العيد
من بعد ترقّبه لمجيء العيد
الشّرق يريد- ككلّ الأرض- الحرّيّةْ
لن يرضى أن يصبح مزرعة ذرّيّةْ

فالفلّاح والشّاعر ومن يرفع راية النّضال جميعًا يأبون أن يتحوّل الشّرق من مزرعة نضرة إلى مزرعة للتّجارب الذّرّيّة أو العدوانيّة النّوويّة فتستحيل أرض الشّرق خرابًا ودمارًا بعد أن عمّرت بالخضرة وأسباب الحياة والتّجدّد والاستمراريّة.[40]

[40] لم نستحضر جميع سطور القصيدة لكن تجدر الإشارة إلى أنّ راشد حسين يقسم فيها بالأطفال الشّرقيّين والغربيّين، وبطفل الهند، وبطفل الصّين، وفي طفل أوراس (شرق الجزائر)، وبطفل عُمان وفي صنّين، ونرى أنّ هذا المضمون إنّما يؤكّد سيطرة الأمميّة على خطابه الشّعريّ، ونعتبر ذلك الملمح امتدادًا لتوجّهه الأمميّ الّذي أشرنا إليه في مناقشة حضور العامل في شعره واعتبار النّضال العمّاليّ مسألة أمميّة عالميّة في نظره.

خلاصة

استنادًا إلى ما تقدّم من مضامين البحث نجمل المحاور الجامعة بين العامل والفلّاح في ديوان راشد حسين وفقًا للنّقاط التّالية:

- النّضال ملمح يجمع بين الفلّاح والعامل في قصائد الشّاعر، وهو نضال يُصاحب بتجارب مريرة، بيد أنّهما لا ينكسران أمام هذه التّجارب بل يبديان إباءً وكرامة يدأب الشّاعر على إبرازهما من خلال قصائده، ولا يكتفي بذلك إنّما يسعى في كلّ مرّة إلى إبراز الأمل ممزوجًا بالألم مؤكّدًا أن حالة الظّلم، وما ينتج عنها من محاولة إذلال العامل والفلّاح، لن تدوم ولا بدّ من أن تنتهي مع إشراقة فجر جديد.
- جعل معاناة العامل والفلّاح جزءًا من معادلة عالميّة تتجاوز حدود المحلّيّ، وذلك ممّا يرفع نصّه إلى مستوى العالميّة من جهة، وممّا يدلّ على إنسانيّته وتفاعله مع معاناة الآخر من جهة أخرى، كما أشرنا في تضاعيف البحث إلى حضور الميزة نفسها في شعر سميح القاسم وتوفيق زيّاد.
- الإيمان بالثّورة أبرز ما يلمسه قارئ راشد حسين، فثورة عبد الله الّتي أشرنا إليها في المبحث الأوّل تتقاطع مع ثورة الفلّاح الّذي يئنّ تحت وطأة الظّالم المستبدّ في المبحث الثّاني، وبهذا تصبح النّبرة الثّوريّة جزءًا لا يتجزّأ من هويّة نصوصه، وقد أشرنا إلى هذه النّبرة وكيفيّة توظيفها في قصائده المنبريّة الّتي وجّهها لقاعدة واسعة من أبناء مجتمعه في المناسبات الوطنيّة.
- تصوير أمريكا كقوّة غاشمة ظالمة تظلم العامل والفلّاح وتستضعف قليل الإمكانيّات والحيلة، لكّن الشّاعر يهتمّ بإبراز عيوب حضارة الأمريكيّ ومادّيته مع تسليط الضّوء على إجرام النّظام الأمريكيّ وما يصدر عنه من عدوانيّة، ولا يغيب عن القارئ أنّ الشّاعر يلجأ إلى السّخرية من هذا النّظام كما يتبيّن في متن البحث.

خلاصة قولنا إنّ حضور العامل والفلّاح من المضامين الأبرز في ديوان الرّجل، وفي ظلّ غياب الدّراسات الأكاديميّة الّتي تتناول هذين المضمونين كان لا بدّ لنا من بحثهما بعمق وتمعّن.

المصادروالمراجع

حسين، أحمد. أحمد حسين عن راشد حسين، مقال منشور في الإنترنت (الرّابط

http://www.geocities.ws/rashidhosein/derasat.htm#%D8%A3%D8%AD%D9%85%D8%AF%20%D8%AD%D8%B3%D9%8A%D9%86%20%D8%B9%D9%86%20%D8%B1%D8%A7%D8%B4%D8%AF%20%D8%AD%D8%B3%D9%8A%D9%86.(26.6.2025 (تاريخ الدّخول:

حسني، محمود. **راشد حسين من الرّومانسيّة إلى الو اقعيّة.** الزّرقاء، 1985.

حسين، راشد. **الأعمال الشّعريّة.** ط.1. الطّيبة: مركز إحياء التّراث العربيّ، 1990.

خمايسي، راسم. "دور الحكم العسكريّ في تخطيط وتقييد عمليّة التّمدّن لدى العرب الفلسطينيّين في إسرائيل." **الأقلّيّة العربيّة الفلسطينيّة في ظلّ الحكم العسكريّ وإرثه.** حيفا: مدى الكرمل- المركز العربيّ للدّراسات الاجتماعيّة التّطبيقيّة، 2014، 83-105.

خوري، إلياس. "راشد حسين الغائب الحاضر." **مجلّة الدّراسات الفلسطينيّة** 2013، 54- 66.

كامل، رياض. "صورة العامل في شعر سميح القاسم." **جريدة الاتّحاد- الملحق الثّقافيّ.** 8.2.2019.

قسطندي، شوملي. **جدليّة الحياة والموت: دراسة بنيويّة في شعرراشد حسين.** الطّيبة، 1996.

قعدان، محمّد. "الكفاح الفلسطينيّ تحت الحكم العسكريّ بوصفه تاريخًا عالميًّا: الشّيوعيّون وحركة الأرض." **مجلّة رمّان الثّقافيّة** (تمّوز 2025). الرّابط

https://rommanmag.com/archives/35816 (تاريخ الدّخول: 22\10\2025).